من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

آداب المائدة في الاسلام

قلّ من كتب في آداب المائدة في الاسلام . ومن المخطوطات المفقودة التي نقل لنا اسماءها الورّاقون ، ورواة التراجم والوفيات ، « كتاب ادب الموائد » للقاضي الحسن بن عبد الرحمن بن خلّاد الرامهرمزي .[1] و « كتاب ادب الطعام والشراب » لابي نصر الاصبهاني .[2] و « كتاب الطعام والادام » للامير المختار عز الملك المستجي .[3] وفي كتب الادب والفقه عدة اشارات وشروح في معناها لو جُمعت لكان فيها سداد من عوز . وقد اختلف نظر الفقهاء والادباء في رسوم المائدة وشروط المؤاكلة ، وتناقضت احكامهم فيها تناقضاً بيّناً حتى عُدّت طائفة كبيرة من آداب المائدة في الحضارة العباسية بِدَعاً يجب التحرّز منها في نظر اهل السنة . وقد اجترأنا ، من بسط آراء الفقهاء ، على اقوال ابن الحاج العبدري المالكي في كتابه « المدخل » لما فيها من البيان والغناء والغرابة .

آداب الطعام في السنّة المحمدية

الخوان او المائدة

« اما الخوان فلا ضرورة تدعو اليه لان النبي صلعم كان يأكل على الارض في بعض الاحيان . وفي بعضها يأكل على سفرة » (ج ١ : ص ١٨٨) وقد دفع التنطّع بعض المتمسكين بهذا القول الى اطراح كل ما له اقلّ شبه بالخوان لارتفاعه عن الحضيض ، فكان « اذا جاءته زبديّة لها قعر مرتفع يكسر قعرها . وحينئذٍ يأكل منها ويقول اخاف ان يكون خواناً لعلوها على الارض . » (١٨١)

١) الفهرست لابن النديم .

٢) الوافي بالوفيات للصفدي . خزانة اكفورد Seld. Arch. a 24 f° 5

٣) المقفى للمقريزي . خزانة ليدن Arab. 1366 b f° 7

غسل الايدي قبل الطعام

« روى اسماعيل بن أويس عن مالك انه دخل على عبد الملك بن صالح (الهاشمي) يسلّم عليه . فجلس ساعة ثم دعا بالطعام ودعا بالوضوء لغسل يده. فقال عبد الملك : ابدأوا بابي عبدالله يغسل . فقال مالك : ان ابا عبدالله لا يغسل يده فاغسل انت يدك فقال له عبد الملك : لِمَ يا ابا عبدالله . فقال له : ليس هو من الاثر الاول الذي ادركت عليه اهل بلدنا . وانما هو من زيّ العجم . وقد بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : اياكم وزيّ العجم .» (١٨١)

آنية المائدة

« يُتحرّز من هذه البدعة التي أحدثت وهي ان يكون للرجل طعام خاص به . وزبدية خاصة به . وكوز خاص به . ألا ترى حديث عائشة رضي الله عنها . قالت : كنت اشرب من الاناء فيأخذه رسول الله صلعم . فيشرب منه . فيضع فاه في موضع فيّ » (١٧٩)

تقطيع الخبز واللحم بالسكين

« تكسير الخبز بالسكين بدعة مكروهة . وفيه انتهاك لحرمة الخبز . وكذلك لا يعضّ في الخبز حين الاكل ولا ينهشه . بخلاف اللحم . لان السنة المحمدية قد فرقت بينهما . فجعلت العضّ والنهش في اللحم دون الخبز . وبعض الناس يتساهلون في هذه الامور فيقطعون اللحم بالسكين اذا ارادوا اكله ومثله الخبز . ولا ضرورة تدعو الى ذلك » (١٩١)

الاكل بالملاعق

« السنة ان يأكل بيده ولا يدخل اصابعه في فمه ثم يردها الى القصعة . . . وينبغي له ان لا يأكل بهذه الملاعق ولا بغيرها . وذلك لثلاثة اوجه . احدها مخالفة السلف في ذلك . والثاني انه يدخل ذلك في فمه ثم يرده الى الطعام . . . والثالث فيه نوع من الرفاهية » (١٨٥ — ١٨٦)

لعق الاناء بعد الفراغ

« ينبغي له ان يلعق الاناء اذا فرغ الطعام منه لما ذُكر ان القصعة تستغفر للاحسها » (١٨٦)

إخبار الضيوف بالوان الطعام

« ينبغي له ان كانت الضيافة الواناً وقُدّم له بعضها وقد بقي بعضها ان يخبرهم بانه قد بقي عنده من الالوان كذا وكذا حتى لا يكتفوا من الاول. وقد يكون فيهم من لو علم بالطعام الثاني لانتظره ... وكذلك يخبرهم بالحلاوة ان كان ما احضرها مع الطعام . وكذلك الفاكهة والنقل وغير ذلك » (١٩١ — ١٩٣)

الحلو بعد الطعام

« ينبغي له ان لا يخلي اضيافه من شيء حلو وان قلّ . بل هو آكد من الوان الطعام . فلو اطعمهم لوناً واحداً مع شيء حلو بعده كان اولى من عمل الالوان وليس فيها شيء حلو . فان جمعهما فياحبذا ». (١٩١ — ١٩٢)

غسل الايدي وتنشيفها بعد الطعام

« كان عمر بن الخطاب اذا اكل مسح يده بظهر قدميه » (١٨١) « وينبغي له ان ينبه من حضره وغيرهم على ما يفعل اليوم من هذه البدعة بل المحرّم للسرف والخيلاء . وهي ما يفعله بعض الناس من غسل الايدي بآء الورد وتنشيفها بالمناديل والفوط الحرير » . (١٩١ — ١٩٣)

آداب المائدة في الحضارة العباسية

السفرة والمنوان

كانت السفرة اكثر ما تكون قوراء اي مدوّرة تبسط على الارض. ويتحلّق القوم حولها . ويقال لها بنيّة — وفي الاصطلاح بنيجة — اذا كانت مسفوفة من الخوص اي من سعف النخل كالاطباق . وربما عملت من النسيج او من النحاس . ثم غلب استعمالها من الاديم لسهولة إزالة الوضر عنه . ولما صار زرياب ، مولى المهدي الخليفة العباسي ، الى الاندلس كان ما اتخذه الناس عنه

« اختياره سُفر الاديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية . اذ الوضر يزول عن الاديم باقل مسحة »[١].

وكان الامراء ووجوه الدولة اذا اطعموا الناس امروا ببسط السفر للعامة . ونصب الاخونة للخاصة من بطانتهم . وممن عرف بذلك ابن هبيرة امير العراق . كان اذا صلى العصر توضع السفرة والطعام للعامة . ويوضع له ولاصحابه خوان مرتفع فيأكل معه الوجوه من اصحابه .[٢] ولكن يوسف بن عمر ، امير العراق ايضاً ، كان لجوده وكرمه لا يفرق بين الخاصة والعامة في اسمطته . ويطعم الناس على خمسمائة خوان . اقصاها وادناها سواء يأكل منها الشامي والعراقي . وعلى كل خوان قرنية[٣] عليها السكر . فنفد السكر من قرنية الى قرنية فتكلم أكلتها . فضرب الخباز ثلثمائة سوط والناس يأكلون . فكان الخباز يتخذ الخرائط فيها السكر فكلما نفد زاد[٤].

واكثر ما كانت تصطنع الموائد من الخشب لقرب متناوله ووفرته . ولكن بعض الكبراء والاغنياء كانوا يتأنقون في اختيارها من الرخام والمرمر والجزع[٥] . واتخذها الخلفاء من الفضة والذهب . واشتهر في سماط عيد الفطر في القاهرة « مائدة من فضة يقال لها المدوّرة وعليها اواني الفضيات والذهبيات والصيني »[٦] وانما سميت بالمدوّرة لاستدارتها كما قيل لغيرها « المُطاوَلة » لاستطالتها . وقد ورد ذكر المطاولات مرتين في الجزء الاول والثامن من نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي[٧] . ويشبه ان تكون كلمة tavola بالايطالية مأخوذة من هذا الاسم .

---

١) نفح الطيب للمقري ٢ : ١٢٢ .

٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢ : ٣٧٠-٣٧١

٣) يريد بالقرنية اداة بمعنى « السكرّية » كانت تصنع من القرن كما يدل عليها اسمها ويوضع فيها السكر على الموائد . وهي من الالفاظ المولّدة التي لم تذكرها المعاجم .

٤) وفيات الاعيان ٢ : ٤٧٨-٤٧٩

٥) مروج الذهب للمسعودي ، بهامش الكامل لابن الاثير ١٠ : ١٣٨

٦) المقفى للمقريزي . مطبعة النيل ٢ : ٢٢٠

٧) الخزانة الشرقية ٢ : ١٦٦

غسل الايدي قبل الطعام وبعده

قال ابن عبد ربّه : « من الادب ان يبدأ صاحب الطعام بغسل يده قبل الطعام ثم يقول لجلسآئه : من شآء منكم فليغسل . فاذا غسل بعد الطعام فليقدّمهم ويتأخر »[1] . وقد مرّ بنا ان بعض الخاصة كانوا ، اذا انتهوا من الاكل ، يغسلون ايديهم بمآء الورد وينشفونها بالمناديل الحريرية . وهذا كان رسم مائدة الوزير ابي الحسن علي بن محمد بن الفرات . وقد وصف الصابئ مجلسه بين اصحابه على الطعام اجمل وصف . وشرح فيه كيف كان كتّابه يغسلون ايديهم مرتين . الاولى في الطسوت بعد ان ينتهوا من اكل اصناف الفاكهة التي كانت تقدم لهم قبل الالوان كما تقدم البوارد والمشتهيات اليوم . والثانية بعد الفراغ من الاكل « في مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه » . ومن هذا الوصف يتبين لنا مصطلح القوم في دعواتهم وخدمة موائدهم وما كانوا يتخذونه فيها من آنية واداة ومنديل . قال الصابئ بعد ان ذكر اسمآء تسعة من الكتاب الذين رسم ابن الفرات باستدعآئهم في وزارته الثانية :

« وكانوا يحضرون مجلسه في وقته . ويقعدون من جانبيه وبين يديه . ويُقدَّم الى كل واحد منهم طبق فيه اصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء . ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الاصناف . وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى . ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل . فاذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الاطباق وقدمت الطسوت والاباريق . فغسلوا ايديهم واحضرت المائدة منشّاة بديباجي فوق مكبّة خيازر . ومن تحتها سفرة أدَم فاضلة عليها . وحواليها مناديل النَمَر من الثياب المعصور . فاذا وضعت رفعت المكبة والاغشية . واخذ القوم في الاكل . وابو الحسن يحدّثهم ويباسطهم ويؤانسهم . فلا يزال على ذلك والالوان توضع وترفع اكثر من ساعتين . ثم ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون ايديهم . والفراشون قيام يصبون المآء عليهم .

١) العقد الفريد ١ : ٢٢٤

والخدم وقوف على ايديهم المناديل الدبيقية . ورطليات[1] ماء الورد لمسح ايديهم وصبّه على وجوههم »[2] .

الحَضَض او رقعة الوان الطعام

قال ابو الفتح كشاجم : « خُبِّرت ان بعض المتقدمين كان يذكر ما يصنع لاخوانه من الطعام في رقعة ويعرض عليهم . فمن استطاب لوناً حبس نفسه عليه »[3] وهذه الرقعة هي المعروفة اليوم باسم menu ولعل اولى ما يطلق عليها في اللغة لفظة الحَضَض على قلة ما فيها من طلاوة وحلاوة . وهي تعني « الوان الطعام » .

واذا كانت عادة كتابة الرقاع في الولائم لم تتجاوز موائد بعض المتقدمين فقد استعاض عنها غيرهم باستدعاء طُلباتهم وسؤالهم امام الاضياف عما عندهم من الالوان ليحبس كل رجل منهم نفسه وشهوته على ما يختار ويؤثر منها . وقد وصف الجاحظ مائدة عبد الاعلى بن عبدالله بن عامر فقال : « يأتيه الطباخ فيمثل بين يديه فيقول : ما عندك . فيقول : عندي لون كذا . وجدي كذا . ودجاجة كذا . . . ليقصر كل رجل عما لا يشتهي حتى يأتيه ما يشتهي »[4] .

المشوش

اذا صحّ ان عمر بن الخطاب كان اذا اكل مسح يده بظهر قدمه كما تقدم من لفظ ابن الحاج، فقد كان امرؤ القيس في الجاهلية اكثر ظرفاً حيث يقول:

غشّ بأعراف الجياد أكفّنا اذا نحن قمنا عن شواء مضهّب

وهذه المشوش هي التي سماها الصابئ مناديل الغمر اي الدفر . وقد سبق من وصفه انها كانت على مائدة الوزير ابي علي بن الفرات من الدبيقي وهو ثوب كان يعمل في دبيق بمصر .

وكان بعضهم يضعها احياناً على صدره كما يُفعل اليوم اتقاء للوضر . ومن

١) الرطلية آنية كانت تسع رطلاً من ماء الورد او غيره من السوائل . وهي مولدة .
٢) تاريخ الوزراء ، ص ٢٤٠
٣) ادب الندم . باريس ١٣٣٠ ، ص ٣٠
٤) البيان والتبيين ١ : ١٢٢ ؛ وكتاب البخلاء . . ، طبعة ليدن ، ص ١٩٣-١٩٤ ؛ والعقد الفريد ١ : ٢٢٢

وصف بذلك ابن هبيرة امير العراق « كان يدعو بالغداء فيتغدى ويضع منديلًا على صدره ويعظم اللقم »[١].

الملاعق

« كان لاهل همذان خاصة حذق باتخاذ المرايا والملاعق والمجامر والطبول المذهبة التي قد فاقوا بها وباتخاذها جميع اهل الارض »[٢]. ولابن الخيمي المصري الدار المتوفى سنة ٦٨٥/١٢٨٦ ملغزًا في الملعقة :

وعدودة كيد المجتدي بكفّ على ساعد ممدد
ترى بعضها في فمي كالسنا ن، وجلتها في يدي كاليد [٣]

واهدى البرهان الغزولي النحوي مرة ملاعق للصاحب زين الدين بن زبير وكتب معها الابيات الآتية نزريها على قلة طلاوتها وضعفها وابتذال معناها :

لما بعدتم وكاد اليأس يقضينا من نيلكم، ودنت منا امانينا
بتنا على سغب الآمال في ظمإ والشوق ينشرنا طورًا ويطوينا
ثم استنبنا تحيّات السلام عسى تعود منكم تحيات فتحيينا
وقد بعثنا لكم مملوءة قُبَلًا مثل الايادي التي اعيت ايادينا
مستطعمات طعامًا من مطاعمنا وافتكم بلسان الحال يحكينا [٤]

وكانت الملاعق تصطنع من الزجاج المجرود، ومن النحاس، والفضة، والذهب. وممن كان يستعمل كثيرًا الزجاج المجرود الوزير المهلبي « وكان شديد التقشف عظيم التنطس... وكان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله انه كان اذا اراد اكل شيء بملعقة كالارز واللبن وامثاله وقف من جانبه الايمن غلام معه ثلثين ملعقة زجاجًا مجرودًا. وكان يستعمله كثيرًا فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة. ثم يدفعها الى غلام آخر قام من الجانب الايسر. ثم يأخذ اخرى فيفعل بها فعل الاولى حتى ينال الكفاية. لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية »[٥].

١) وفيات الاعيان ٢ : ٣٦٥
٢) كتاب البلدان لابن الفقيه. ليدن، ص ٢٥٣
٣) فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٣٦٥
٤) مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين الغزولي ٢ : ٤٠-٤١
٥) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ١٥٣-١٥٢

ولما توفي الوزير يعقوب بن كلس ، وزير المعزّ لدين الله ، ودفن بالقبة التي كان بناها « اقام الناس عند قبره شهرًا . . . وكانت الموائد تحضر الى قبره كل يوم مدة شهر . يحضر نساء الخاصة كل يوم ومعهنّ نساء العامة . فتقوم الجواري باقداح الفضة والبلور وملاعق الفضة . فيسقين النساء الاشربة والسويق بالسكر »[1].

ووجد في تركة القائد جوهر وزير المعزّ ثلاث آلاف ملعقة من الذهب والفضة .[2]

وليس لدينا اقل اشارة الى ان احدًا في الحضارة العباسية استعمل على مائدته ما يقرب من « الشوكة » المعروفة اليوم . وانما كان اللحم ينهش نهشاً طبقاً للسنة .

---

١) المخطط للمقريزي ، مطبعة النيل ٣ : ١١

٢) تاريخ ابن اياس ١ : ٥١